# الفصل العاشر

# الكتب والمكتبات في أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي

شهدت القرون المتأخرة من العصور الوسطى نهضة بدأت في أوروبا، أثارها احتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الحروب الصليبية (في بلاد الشام مصر) وفي الأندلس، فشاهدنا في هذه الفترة ولادة الجامعات الأوروبية وبدء دخول واستعمال الورق، كما شاهد هذا العصر ازدهار المدن التجاري، وتمركز الحياة في هذه المدن وظهور طبقة وسطى غنية بدأت تنافس الملوك والإقطاعيين، كما شاهدت هذه الفترة بداية ظهور الدول الوطنية في أوروبا الغربية كفرنسا وإنكلترا. كما شاهدت هذه العصور عدة محاولات لإصلاح الكنيسة وعدة ثورات ضدها؛ وانتهت هذه العصور عند حدوث تغييرات جذرية في المجتمع الأوروبي. ذلك أن الطباعة اخترعت في أواخر هذه العصور فأحدثت انقلاباً فكرياً هائلاً. كذلك انحطت الحياة الديرية وفسدت الكنيسة مما أدى إلى قيام مارتن لوثر في ألمانيا ضد الكنيسة الرومانية، وأدى هذا بالتالي إلى الإصلاح الديني والإصلاح المعاكس. وولدت في نهاية هذا العصر الدول الوطنية الكبرى في غربي أوروبا كفرنسا وإنكلترا وإسبانيا وهولندا. ووجد حكام متنورون أذاعوا الفنون والآداب والعلوم وشجعوها وخاصة في إيطاليا وفرنسا وإنكلترا. وولد الفكر العلمي في أوروبا الغربية لأول مرة وأحييت الآداب الكلاسيكية ودرست في أرجاء أوروبا مما أدى إلى بداية عصر النهضة في البلدان ا لأوروبية الغربية، وكان له أثر يذكر في زوال عقلية القرون الوسطى نهائياً وفي بداية العصور الحديثة بما تحمله من مميزات وبما تحفل به من مساوئ. ولقد أثرت كل هذه التطورات الهائلة على المكتبات والكتب في أوروبا إبان هذه المرحلة بالذات مما سنشاهده واضحاً كل الوضوح أثناء دراستنا للموضوع في الصفحات التالية:

وإن الكاتدرائيات، التي كانت مراكز إدارة ومراقبة الكنائس التابعة لها، لم تكن مجرد كنائس كبرى، وإنما كانت، بالإضافة إلى ذلك مدارس دينية يتمرن فيها رجال الدين الذين



obeikandl.com

سيعينون لوظائف كهنوتية، كما كان فيها بعض التدريب الدنيوي المنخفض. وكانت الكاتدرائيات موجودة في المدن الرئيسية المهمة، ولذلك كانت ميسورة للطلاب أكثر من الأديرة المنعزلة. وعلى الرغم من أن هذه الكاتدرائيات موجودة منذ القرن الخامس الميلادي، إلا أنها لم تصبح ذات أهمية إلا بعد القرن العاشر.

ولقد وجدت مكتبات مهمة في جميع الكاتدرائيات والمدارس الملحقة بها. وهي تختلف عن مكتبة الدير في عدة نقاط، فقد كانت مكتبة الكاتدرائية تحوي كتباً علمانية أكثر بكثيرمما تحويه مكتبة الدير، وذلك بسبب وظيفة مكتبة الكاتدرائية التربوية التثقيفية التي تختلف عن وظيفة مكتبة الدير الروحانية فقط. كذلك كان نمو مكتبة الكاتدرائية ثابتاً ومتدرجاً أكثر من مكتبة الدير لأن موارد الكاتدرائية الثابتة المستقرة كانت تسمح لها بذلك. ومع الأيام أصبحت مجموعة كتب الكاتدرائية أكمل وأغزر وأحسن تنظيماً من مثيلتها الديرية. ولعل أشهر مكتبات الكاتدرائيات تلك التي وجدت في يورك ودورهام وكانتربري في إنكلترا، وفي نوتردام وأورليان وروان في فرنسا، وفي هامبورغ في ألمانيا. وكان يوجد في مكتبات الكاتدرائيات المهمة ثلاث مجموعات من الكتب الأولى المجموعة الرئيسية وأغلب كتبها ذو طابع ديني، وكتب الخدمة، والمجموعة الملحقة بمدرسة الكاتدرائية وتحوي هذه أغلب الكتب العلمانية الموجودة في مكتبة الكاتدرائية. وكانت محتويات هذه المكتبات في أواخر القرن الثاني عشر لا تتجاوز بضع مئات من الكتب. فمكتبة كاتدرائية دورهام كان بها حوالي ٦٠٠ مجلد في حدود ١٢٠٠م. ولم تلعب مكتبات الكاتدرائيات الدور الذي لعبته المكتبات الديرية في تاريخ الثقافة في أوروبا، ولكنها خدمته كجسر بين مكتبات الأديرة ومكتبات الجامعات.

كانت محتويات هذه المكتبات دينية بالدرجة الأولى. وتحتل التوراة مكان الصدارة تتلوها أعمال آباء الكنيسة القدامى مع الشروح عليها والتفاسير والتعليقات عليها. ثم سير وتراجم شهداء الكنيسة، فكتب الخدمة، وأخيراً كتب قواعد ونحو وصرف اللغة اللاتينية، مع وجود عدد قليل من الكتب اللاتينية الكلاسيكية وكتب أقل من الكتب اليونانية والأدب المحلي. كانت أغلب الكتب مكتوبة على رقوق وجلود في هيئة الكتاب الكراس.

وعندما زاد عدد الكتب في الكاتدرائيات بدأ الاهتمام بتنظيم الكتب بشكل علمي. فبدأ بترتيب الكتب حسب الموضوعات وأحياناً بحسب حجمها أو بمجرد وصولها إلى

المكتبة. وكانت الكتب تقسم إلى قسمين رئيسين : الكتب الدينية والكتب العلمانية. ثم تقسم الكتب الدينية حسب الموضوعات وكذلك الكتب العلمانية.

كذلك وجدت فهارس لمحتويات المكتبات المهمة وأغلبها لوائح بأسماء الكتب بعضها باسم المؤلف وبعضها بالعنوان.

ولقد تغيرت الشروط الفيزيائية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فقد ازداد عدد الكتب في مكتبات الكاتدرائيات المهمة من بضع مئات إلى بضعة ألوف، وزالت صناديق الكتب لتحل محلها خزائن الكتب، ومن ثم غرف صغيرة خاصة للكتب حتى لقد بنت بعض المعاهد الدينية في أواخر القرن الخامس عشر أبنية خاصة للمكتبات كما فعلت كنيسة المسيح في كنتربري في إنكلترا إذ بنت مكتبة خاصة هي غرفة طويلة أبعادها ٦٠×٢٢ قدماً. وقد رتبت الكتب على أرفف الخزائن بشكل يجعلها تتعرض لأكبر قدر من الضوء. ولقد سلسلت الكتب المهمة الممنوع إعارتها بالسلاسل. وهناك كتب غير مسلسلة كان من الممكن إعارتها إعارة خارجية.

وازدهرت كذلك مكتبات الأديرة، وأشهر الهيئات الديرية التي اهتمت بالمكتبات هم البندكتيون، ومن أشهر الأديرة التي حوت مكتبة مهمة دير مونت كاسينو في إيطاليا وكانت مكتبته من أشهر المكتبات الديرية. كذلك اشتهر دير القديس بندكت المقام على نهر اللوار في فرنسا بنشاطه الثقافي حتى قصده الطلاب من أرجاء أوروبا في القرن الثاني عشر. كذلك اشتهر الكلونيون بنشاطهم الثقافي ومكتباتهم التي ألحقوها بأديرتهم التي أسسوها في أرجاء أوروبا. فقد ألحقوا بدير كلوني مقر طائفتهم مكتبة مهمة، وكذلك وسعوا المنسخ ونسخوا فيه كتابات آباء الكنيسة وظل نشاط هذا الدير قائماً حتى سنة ١٦٥٢م.

ولكن نظام الرهبنات بدأ بالاضمحلال والانحطاط في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وركن الرهبان أنفسهم إلى الكسل والراحة وعاش كثير منهم عيشة مترفة، كما أهملوا الثقافة والتعلم فانتشرت الأمية بينهم، وأدى ذلك بالتالي إلى إهمال المكتبات الديرية وانخفاض عدد الكتب فيها. فقد تقلص عدد كتب مكتبة دير سان أمرمام في فرنسا إلى النصف، كما أن رهبان دير مور باخ في ألمانيا لم يعودوا يعرفون القراءة والكتابة.

ومن حسن حظ أوروبا والإنسانية فإن نهاية مكتبات الأديرة وتدمير محتوياتها حدث بعيد اختراع الطباعة، ولذا يمكن القول أن القسم الأعظم من محتويات هذه المكتبات المهمة كان قد تم طبعه سابقاً، وما فقد يعتبر قليلاً للغاية.

وإذا أردنا أن نتكلم عن المكتبات الجامعية في العصور الوسطى في أوروبا وجب علينا أن نلاحظ ما يلي : لم تكن المكتبة الديرية ، بتركيبها ومحتوياتها وطبيعتها، مؤهلة بأي حال من الأحوال لترقية البحث والدرس والمساهمة في نشر الثقافة بين الجماهير وجعل الكتب في متناول الجماهير. كذلك لم يكن بإمكان مكتبات الكاتدرائيات أن تقوم بهذه المهمة ولا المكتبات الخاصة. ولما كانت المكتبات العامة مفقودة تماماً في أوروبا، فقد وجب أن تقوم هيئات جديدة، تأخذ على عاتقها القيام بالبحث والدرس ومحاولة نشر الثقافة بين فئة من الناس، وقد قام بهذه المهمة الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى. ولو على مقياس ضيق. وكانت مكتباتها هي الأماكن التي جرى فيها شيء من البحث والدرس في تلك العصور المظلمة.

إن الجامعة، بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة، لم تظهر في أوروبا إلا في أواخر القرن الثاني عشر. ومع ذلك فقد جرت عادة بعض الطلاب أن يجتمعوا في حلقات حول أحد الأساتذة لتلقي العلم منه، وكان هؤلاء الطلاب ينتقلون من بلد إلى بلد بحثاً عن الأساتذة المشهورين. وإذا صدف أن وجد في مدينة واحدة عدد من الأساتذة وجب على الطلاب أن ينظموا أنفسهم في مجموعات من أجل ضمان حسن استفادة الطرفين من المحاضرات ولضمان حصول الطرفين على المنح التي تمنحها لهم المدن. وكانت هذه التنظيمات هي أساس الجامعات في العصور الوسطى. ولم يكن في أول الأمر مناهج مقررة أو مواد دراسية أو شهادات أو درجات علمية، ولكن كل ذلك أتى فيما بعد وبالتدريج ووضعت القواعد الناظمة لذلك وأصدر الملوك والبابوات المراسيم والبراءات التي تنظم ذلك، وهكذا نظمت الجامعات.

ولعل فكرة إنشاء وتأسيس الجامعات أتت إلى الغرب إثر احتكاك الغربيين بالمسلمين في الأندلس حيث كان التعليم الجامعي هناك في أوجه. فقد قصد الطلاب المسيحيون من جميع أنحاء أوروبا الجامعات الإسلامية في الأندلس للتعلم. وهناك تعلموا العلوم الإسلامية واللغة العربية، وعندما رجعوا إلى بلادهم اصطحبوا معهم كتباً علمية وطبية هي ترجمات لاتينية لمؤلفات العلماء المسلمين كابن سينا والرازي والكندي وابن رشد وغيرهم، وبعضها

الآخر ترجمات لاتينية لمؤلفات أرسطو وجالينوس وإقليدس التي نقلها المسلمون من اليونانية إلى العربية.

ولقد وجد، في أوائل القرن الثاني عشر مدرستان للطب في سالرنو وبولونيا في شمالي إيطاليا حيث كان التعليم يتم كلياً من كتب عربية نقلت إلى اللاتينية. وقد حدث أن اجتمع في بولونيا عدد من الطلاب والأساتذة يدرسون الطب معاً فأصدر الإمبراطور فريدريك الثاني سنة ١١٥٨م براءة يعترف بهذه المدرسة جامعة. وكانت هذه أول جامعة أوروبية. ولقد وجد في باريس في القرن الثاني عشر أربع مدارس دينية مهمة وقد قاربت في سنة ١١٦٧م أن تصل إلى حد الاعتراف بها جامعة. ولقد غادر هذه المدارس فريق من الطلاب الإنكليز ورجع إلى إنكلترا حيث أسسوا مدرسة دينية قدر لها أن تصبح فيما بعد جامعة اكسفورد. وأخيراً منح الإمبراطور فيليب أوغسطس مدارس باريس الدينية الشخصية الجامعية وأصبحت جامعة معترفاً بها وذلك سنة ١٢٠٠م. ولم تطل سنة ١٣٠٠م حتى أصبح عدد الجامعات الأوروبية المعترف بها حوالي ست عشرة جامعة.

لم يكن لهذه الجامعات مكتبات إطلاقاً وذلك لفترة طويلة من الزمن، وإنما كان بعض الأساتذة يمتلك لنفسه مجموعة صغيرة من الكتب، وكان الطلاب ينسخون المحاضرات أو يستأجرون من ينسخها لهم، ولذلك كثر بائعو الكتب حول الجامعات وازدهرت تجارة الكتب، وأسس تجار الكتب نقابات كبرى لهم. ولعل أقدم مثل على مكتبات الجامعات، هي كتب مجموعات الطلاب الخاصة بهم، ويطلق عليها اسم مكتبة الأمم. ذلك أن كثيراً من الطلاب كانوا يعيشون في مكان واحد أو حي واحد متشاركين في كل شيء، وكانوا يجمعون كتبهم في مكان واحد، واستعمالها مباح للجميع. وكان الطلاب المتخرجون يقدمون الهبات والهدايا للمكتبة. وكانت مكتبات الكليات أقدم مثل على المكتبات الجامعية، إذ أسست كل كلية مكتبة خاصة بها. أما المكتبة المركزية في الجامعة فهذا شيء أتى فيما بعد في زمن متأخر. وظل عدد الكتب في مكتبات الكليات قليلاً حتى اختراع الطباعة.

إن نمو كل من مكتبة جامعة باريس وجامعة أكسفورد مثل يوضح نمو مكتبات بقية الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى. وإن أقدم ذكر موثوق به لمكتبة في جامعة باريس حدث سنة ١٢٥٠م عندما وقف روبير دوسوربون كلية على الطلاب في جامعة باريس ومنحها مكتبته الخاصة مع أموال ومنح أخرى لاستمرارها. وتسمى جامعة باريس باسم

جامعة السوربون باسم هذا الراهب واعترافاً بجميله في مدها بالأموال والكتب.

وقد اشتمل فهرس كتبها سنة ١٢٨٩م على أكثر من ألف عنوان.

وهناك وصف لمبنى مكتبة جامعة السوربون آنذاك. فقد كانت غرفة المكتبة عبارة عن غرفة طويلة ضيقة أبعادها ٤٠×١٢ قدماً تنيرها تسع عشرة كوة من كل جهة. وكانت الكتب الثمينة مثبتة بالسلاسل إلى الرفوف، ولكن السلاسل كانت طويلة إلى الحد الذي يسمح بإيصال الكتاب إلى الطاولة. وهذه المجموعة من الكتب المسلسلة تسمى المكتبة الكبرى وتضم الكتب الأكثر تداولاً. أما الكتب المتعددة النسخ أو الكتب الأقل تداولاً فكانت تسمى المكتبة الصغرى، وكانت تعار إعارة خارجية بموجب رهن يقدر حسب قيمة الكتاب الواردة في الفهرس. وكان ترتيب الكتب موضوعياً، ولغة الغالبية العظمى من الكتب اللاتينية، وأهم الموضوعات الإلهيات والقانون الروماني والطب.

ولقد تعددت الكليات في الجامعة في القرن الرابع عشر، وأصبحت العادة أن تنشىء كل كلية لنفسها مكتبة خاصة كما فعلت كلية الطب التي أنشئت سنة ١٣٩١م. ولقد كانت أغلب مكتبات الكليات في أصلها مكتبات خاصة لأفراد من الأساتذة أو الطلاب الخريجين أوصوا بكتبهم إلى كليتهم فتطورت المجموعة حتى أصبحت مكتبة الكلية. ولم تؤسس في جامعة باريس مكتبة مركزية حتى القرن التاسع عشر، ولما تم ذلك جعلت مكتبة السوربون المركز الذي أنشئت حوله المكتبة الوطنية.

ولم تمنح جامعة أكسفورد الشخصية الجامعية إلا في سنة ١٢١٤م؛ عندما أصدر البابا مرسوماً يعترف بها جامعة، هذا مع العلم أن الجامعة وجدت ومارست التدريس الجامعي قبل سنة ١٢٠٠م. ولم تبدأ الكليات تمتلك مكتبات خاصة بها إلا في القرن الرابع عشر، على الرغم من وجود مكتبة صغرى لاستعمال أعضاء هيئة التدريس. فمثلاً تأسست كلية ميرتون Merton سنة ١٢٧٤م، ولكن مكتبتها لم تفتح أبوابها رسمياً إلا سنة ١٣٧٧م أي بعد مضي أكثر من قرن على تأسيس الكلية. وهكذا مع بقية الكليات الأخرى.

كان بإمكان الأستاذ استعارة كتابين فقط والاحتفاظ بهما طوال السنة، كما كان يعطى مفتاحاً للمكتبة حتى يتمكن من استعمال كتبها، وكانت كتب المصادر مسلسلة ولا يمكن إخراجها خارج مبنى المكتبة.

أما مكتبة الجامعة العامة فلم تبرز إلى الوجود إلا في القرن الخامس عشر وسميت باسم

مكتبة دوق همفري الذي منحها مكتبته الخاصة وبذل جهوداً كبيرة حتى جعلها تفتح أبوابها فسميت باسمه اعترافاً بجميله.

كذلك مرت مكتبة جامعة كمبردج بتطور مماثل لما حدث لجامعة أكسفورد. وقد ناف عدد الجامعات في أوروبا قبل انقضاء سنة ١٥٠٠م على سبع وخمسين جامعة منتشرة في أغلب البلدان الأوروبية.

وقد تبعت هذه الجامعات، في تنظيمها ومكتباتها وأمورها، خطوات جامعتي باريس وأكسفورد، ومما هو جدير بالذكر أن جامعات البر الأوروبي لم تؤسس مكتبات مركزية إلا في وقت متأخر كل التأخر.

ولقد أثرت أوائل الجامعات مكتباتها عن طريق الهبات والمنح، على حين أثرت الأديرة مكتباتها عن طريق النسخ، وهناك أخبار كثيرة عن ملوك وأمراء وأساقفة وتجار منحوا كتبهم إلى مكتبات الجامعات. كما كان كثير من الملوك والحكام يوقفون الأوقاف الدارة على الجامعات لشراء الكتب أو لدفع مرتبات من يقومون بخدمة الكتب. ومع ذلك فقد ظلت أعداد الكتب قليلة في المكتبات الجامعية ـ بضع مئات من الكتب ـ ولم يرتفع الرقم إلى الألوف إلا بعد اختراع الطباعة.

وكانت الكتب توضع في مكتبات الأديرة والجامعية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في صناديق. ولكن هذه الكتب أخرجت من الصناديق ووضعت على الخزائن ذات الرفوف الشبيهة بالطاولات، وأغلبها مسلسل بسلسلة طويلة تسمح بنقل الكتاب إلى طاولة منخفضة لاستعماله. وكانت الكتب كلها مكتوبة على الرق وبشكل الكتاب الكراس.

وعلى الرغم من اختلاف مكتبات الجامعات فيما بينها، إلا أنه كان هناك نهج موحد في الموضوعات التي يجب أن تحويها هذه المكتبات، وإن اختلف ذلك حسب الزمان والمكان، فأغلب الكتب كانت لغته اللاتينية، مع وجود عدد قليل جداً باللغة المحلية، وعدد أقل لغته اليونانية. وكانت الكتب الدينية هي العمود الفقري للمجموعة: تأتي التوراة على رأسها مع شروحها وكتابات آباء الكنيسة ومراسم القديسين وكتب الصلوات والخدمة والقانون الكنسي، يأتي بعد ذلك الكتب الكلاسيكية فكتابات مؤلفي العصور الوسطى مع شيء من التاريخ والأدب المحلي.

ولقد زاد عدد الكتب العلمية المنقولة عن العربية في السنوات الأخيرة من العصور

الوسطى بما فيها كتب الفلسفة والطب والرياضيات والفلك، وتأتي أخيراً مجموعة القانون المدني المستمدة أصلاً من قانون جستنيان وبعض الكتب المدرسية في النحو والمنطق، ورتبت الكتب على الرفوف حسب الموضوعات بشكل فج ورتبت الفهارس ألفبائياً بشكل فج حسب اسم المؤلف والعنوان.

ووضعت قواعد للإعارة والإعادة ولم يوجد أمناء مكتبة ممتهنون أو متخصصون في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ مكتبات الجامعات، وإنما كان حافظ الكتب موظفاً صغيراً أو تلميذاً.

وكانت مكتبات الكليات أماكن تفيض وتنبض بالحيوية والنشاط وتستعمل كتبها باستمرار. فهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن كتب المكتبات الجامعية في عهودها الأولى كانت مستعملة وكثير منها تمزق وطلب المشرفون على المكتبة إحلال غيرها محلها. ويمكن اعتبار المكتبات الجامعية ممهدة الطريق أمام المكتبات الحديثة. ولقد مهدت مكتبات الجامعات وخريجوها في العصور الوسطى الطريق أمام النهضة والإصلاح الديني في أوروبا. فإذا كانت مكتبات الأديرة حفظت المعرفة في الغرب مدة ألف سنة، فإن مكتبات الجامعات هي التي أحسنت الاستفادة من هذه المعرفة ونشرتها في أرجاء أوروبا وساعدت بشكل مباشر أو غير مباشر، على إنهاء العصور الوسطى.

**ازدهار متاجر الكتب:**

هيأ إنشاء الجامعات فرصة قيام تجارة نشطة في الكتب، لم تكن لتقوم في العصر الوسيط لولا هذه الجامعات.

والواقع أن نقابة بأسرها من ذوي الامتيازات المشتغلين بصناعة الكتاب قد ارتبطت بالجامعات، نذكر منهم طبقة النساخ والمزخرفين وصناع الرق والمجلدين، ثم تجار الكتب أنفسهم statinarii ، ولم تزل كلمة Stationer مستعملة إلى اليوم باللغة الإنكليزية للدلالة على تاجر الكتب أو بائع الورق والدفاتر وما ماثل. كل هؤلاء الصناع والتجار كانوا خاضعين لنظام دقيق ولإشراف الجامعة. فقد تعهد تجار الكتب مثلاً بإعارة الكتب إلى الطلبة لقاء رسم محدد ليقوموا بنسخها هم بأنفسهم. ولم يكن لهم حق بيع الكتب إلا بالعمولة ولم تكن أرباحهم تزيد على نسبة مئوية معنية.

ولدينا لوائح خاصة بمتاجر الكتب في مدينة بولونيا ترجع إلى عام ١٢٥٩م ومن بعدها



openkandil.com

إلى سنوات ١٢٧٥م و١٣٢٣م بالنسبة لمدينة باريس. ومما يدل على التقدير الذي لقيه تجار الكتب في باريس أنهم كانوا يشتركون بعلم شفيعهم سان جان بورت لاتين في المواكب مع سائر الطوائف الأخرى للهيئة الجامعية.

كذلك حوت لوائح الجامعات الألمانية نصوصاً خاصة بدور الكتب التجارية والمتاجر، ولكن يبدو أنها ـ أي المتاجر ـ لم تقم بدور هام وربما ذلك عائد إلى أن طلابها كانوا يكتبون كتبهم التعليمية بأنفسهم بناء على إملاء أساتذتهم عليهم، شأنهم في ذلك شأن الطلاب في جامعات فينا وبراغ.

**المكتبات الخاصة :**

انتشرت هذه المكتبات في أوروبا في أواخر العصور الوسطى بنسب متفاوتة وذلك حسب الظروف السائدة والحكام وحسب التأثيرات المختلفة. وبشكل عام نجد أن الحكام هم أكثر الناس جمعاً للكتب، يتلوهم الباحثون والعلماء، فالبابوات ورجال الدين، وأخيراً أفراد الطبقة الوسطى الذين اغتنوا من التجارة فأرادوا تقليد الحكام والإقطاعيين في هذا المجال. كذلك كانت إيطاليا أشهر مكان وجدت فيه مكتبات خاصة وشجع حكامه هذا النوع من الثقافة وذلك بسبب كونها مهد الإمبراطورية الرومانية ولانفتاحها على المؤثرات الإسلامية واليونانية ولازدهار مدنها الاقتصادي ونشوء طبقة وسطى غنية فيها، يليها فرنسا حيث وجد فيها ملوك شجعوا الثقافة وجمعوا الكتب وبنوا المكتبات. ووجد في هذا العصر مؤلفون ألفوا كتباً في الدفاع عن الكتاب والذب عنه وضرورة حمايته. كل ذلك عوامل مهدت لنشوء النهضة التي بدأت أول أمرها في إيطاليا.

لقد أسس البابوات عندما نقلوا مقر إقامتهم من روما إلى مدينة أفينيون في فرنسا في القرن الرابع عشر مكتبة لا بأس بها. وجمعت كتبها أصلاً إما عن طريق الهبات أو عن طريق مصادرة مكتبات كبار رجال الدين المتوفين. وقد وصل عدد كتبها في أواخر القرن الرابع عشر إلى ما ينوف على ألفي مجلد.

وعندما رجع البابوات إلى روما تركوا القسم الأكبر من المكتبة في فرنسا، وقد ضمها ملوك فرنسا إلى مكتبتهم التي أصبحت فيما بعد المكتبة الأهلية في باريس.

وقد سعى البابوات من جديد في تأسيس مكتبة في روما تليق بهم وبمنصبهم، ويعود الفضل في تأسيس هذه المكتبة إلى البابا نقولا الخامس الذي أسسها في أواخر القرن

الخامس عشر. وقد نجح في إيجاد مكتبة مجموع كتبها حوالي ١١٠٠ مخطوط، وهو رقم، وإن بدا ضئيلاً في نظرنا الآن، إلا أنه يحتمل أنه كان أضخم رقم بلغته مكتبة في أوروبا في ذلك العصر. ولقد تابع خلفاؤه من بعده العناية بهذه المكتبة وتغذيتها. وأشهر من فعل ذلك البابا سكتوس الرابع الذي أوصل عدد كتبها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة. وقد أقيمت هذه المكتبة بالفاتيكان في قاعات فخمة رائعة، وسمح للجمهور بالاطلاع على بعضها. وهذه المكتبة هي سلف مكتبة الفاتيكان المعاصرة.

ولقد وجد في إيطاليا عدد كبير من رجال الدين اشتهروا بحبهم للكتب وإنفاقهم الأموال الطائلة في سبيل اقتنائها من أمثال الكاردنيال بيساريون وبوجي ونقولا الخامس الذي أغرقته الديون بسبب مشترياته العديدة من الكتب قبل أن يصبح بابا. وهناك أمثلة عديدة لقيمة بعض مخطوطات ذلك العهد بحيث أن الواحد منها كان يساوي بمفرده ثروة لا بأس بها.

كذلك اشتهر أمراء إيطاليا وحكامها العلمانيون بتشجيعهم العلم والأدب والفن. وقد نجح أمراء إيطاليا وتجارها في الكشف عن أغلب الكتابات الكلاسيكية التي نعرفها حتى الآن. وقد كشف بعضها في مكتبات أديرة وكنائس إيطاليا، كما كشف البعض الآخر في مكتبات فرنسا وسويسرا وأوروبا الوسطى. ولكن القسم الأكثر أهمية هوالكتب التي أحضرت الى إيطاليا من بلاد اليونان ومن القسطنطينية ومن العالم الإسلامي.

ولقد استيقظ الاهتمام بالكتب وبالتراث الكلاسيكي في إيطاليا على أسس جديدة هي ما سميت باسم الحركة الإنسانية، وهي بداية عصر النهضة التي ترافقت مع نهاية العصور الوسطى. ولقد امتازت هذه النهضة بمحاولة إحياء التراث الكلاسيكي ومحاولة درسه وفهمه. فقد كان زعماء الحركة الإنسانية يدرسون المؤلفات الكلاسيكية باعتبارها غاية في ذاتها للإفادة من فنها وفلسفتها ونظرتها للحياة، لا كما كان يعمل الرهبان الذين كانوا يدرسون هذه المؤلفات لتعلم اللغة اللاتينية فقط.

ولقد أثارت الحركة الإنسانية حماساً بالغاً بين الدارسين، وتعصب كثير منهم للمؤلفين القدماء ولحب البحث والدرس والرجوع إلى المصادر الأصلية وإهمال الترجمات السطحية والتعليقات والشروح المختلفة.

ولذا وجب الاعتراف بفضل هؤلاء الذين أحيوا المؤلفات الكلاسيكية واهتموا بها

لأنهم سلموها للأجيال اللاحقة سليمة نامية متطورة.

وأول من حمل لواء إحياء التراث الكلاسيكي في أوروبا وبالتالي في إيطاليا نفسها المؤلف الإيطالي المشهور والشاعر المعروف فرانسوا بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤م) وهو يسمى (أبو الحركة الإنسانية) و(أول إنسان حديث)، ولقب بحق بـ (أبي هواية الكتب الحديثة). ولكن حبه للكتب وإعجابنا به يجب ألا ينسينا عالماً آخر سبقه ودافع عن الكتاب دفاعاً حاراً، مما كان له، ربما، تأثير على بترارك وجعله ينحو هذا المنحى. هذا الشخص هو أسقف إنكليزي اسمه ريشارد دو بيري عاش بين ١٢٨٧ و ١٣٤٥م.

كانت ثورة هذا الأسقف على اضمحلال الثقافة الفكرية وعدم احترام الكتب أقوى من ثورة غيره. أحب هذا الأسقف الكتب منذ نعومة أظفاره، وقد وصل إلى مراتب عليا في الكنيسة والدولة وارتحل في أقطار أوروبية كثيرة مما جعله يطلع على أشياء كثيرة ويرضي هواياته في جمع الكتب. وقد بدت له باريس جنة أرضية لغناها بالكتب. وجمع مكتبة غنية عامرة. وقد خلد هذا الأسقف اسمه بكتاب ألفه في الدفاع عن الكتاب اسمه Philobiblion أو صديق الكتاب. وظهر الكتاب أول مرة سنة ١٤٧٣م وأعيد نشره عدة مرات ونقل إلى الألمانية ونشر سنة ١٩١٢م. وقد أتى كتابه هذا نشيداً في مدح الكتاب وحبه والدفاع عنه، فضلاً عن لومه الساخر لمن لا يحبون الكتب. وهو يهاجم طائفة الرهبان المنحلة ويخص باللوم تلاميذ المدارس الديرية بالذات لسوء معاملتهم بالكتب: «قد يحدث أن تشاهد أحد هؤلاء الشباب ـ المغترين بأنفسهم ـ منحنياً فوق الكتاب الذي يدرسه، وبرد الشتاء القارس قد أسال أنفه دون أن يفكر في التمخط قبل ابتلال الكتاب الموضوع أمامه بما يسيل عليه من إفرازات أنفه باستمرار... كان أولى به أن يضع أمامه مائدة إسكافي يعمل عليها، بدلاً من الكتاب. وأظافره سوداء كالقطران مليئة بالأوساخ الغضة. وكان التلميذ الراهب يضع بهذه الأظافر علامات على الفقرات التي تعجبه من الكتاب، حتى لتجده يزرع في كتابه بعض عيدان القش كي تذكره بما لا يمكنه أن يذكره هو نفسه... كان الكتاب يتورم وينتفخ إلى حد يستحيل معه إعادة إغلاقه، حتى يؤول أمره في النهاية إلى نسيانه وتعفنه. ولم يكن يهم الإنسان أن يأكل جبناً أو فاكهة على الكتاب المفتوح.. ولما لم يكن لديه مخلاة تحت يده، فإنه كان يترك بقايا طعامه تتساقط على كتابه».

هذه هي صورة الكتب القاتمة في القرن الرابع عشر في أوروبا. وعلى الرغم من

احتمال مبالغة المؤلف في وصفه وحماسه لموضوعه، إلا أن الصورة تبقى بمجملها صحيحة.

أحب بترارك الكتب من نعومة أظفاره وتحمس لها إلى درجة اشترى ونسخ خلال رحلات العديدة، كل ما وقع تحت يده من كتب. وكان له حظ العثور، خلال رحلاته العديدة في الأراضي الواطئة، على نصوص كانت مجهولة حتى ذلك الحين، منها رسائل شيشرون الموجهة إلى اتيكوس. وقد عشق كتاب العصر الذهبي في الآداب الرومانية وعكف على تصحيح كتبهم من الأخطاء والتحريفات التي أصابتها بمرور الزمن بحماسة بالغة. غير أنه لم يتمكن من الاطلاع على الآداب الإغريقية بلغتها الأصلية وذلك لجهله بتلك اللغة، ولكنه اطلع على ترجمات جيدة لبعض هذه الآداب إلى اللغة اللاتينية كالإلياذة والأوديسة. وكان في عزم بترارك أن يوصي لمدينته البندقية بمجموعاته الخاصة من الكتب على شرط إباحة استعمالها للجمهور. وهذا ما يجعلنا نعده أبا المكتبة العامة في أوروبا. وإذا لم تتحقق فكرته وتشتتت كتبه بعد موته فهو غير مسؤول عن ذلك.

ولقد ازدهرت حركة جلب المخطوطات من الشرق في مطالع القرن الخامس عشر وما بعدها، واعتاد قباطنة سفن البندقية وجنوا وفلورنسا أن يشحنوا سفنهم العائدة من موانىء الشرق بمخطوطات اشتروها من هناك ليبيعوها في إيطاليا وعدُّوها تجارة مربحة. فقد احضر جامع الكتب الصقلي جيوفاني أوريسبا معه من الشرق أكثر من مائتي مخطوط يوناني وذلك في سنة واحدة هي سنة ١٤٣٣م، ووجد بينها نسخ من كتب يوزيبيديس وسفوكليس وتوكيديديس. كذلك اشترى فرانسيسكو فيليلفو من القسطنطينية سنة ١٤٢٠م حوالي أربعين مخطوطاً يونانياً، وكثير منها كان مجهولاً كل الجهل في أوروبا الغربية. وهكذا هناك أمثلة كثيرة من هذا النمط.

ولقد تمت عملية الجمع هذه، في قسمها الأكبر، على يد أفراد لا على يد الكنائس أو الجامعات، وكان كثير منهم تجاراً أو أشخاصاً عاديين. ولكن القسم الأكبر من عملية جمع المخطوطات تم لحساب أمراء إيطاليا وحكامها، وكثير من جامعي الكتب كانوا وكلاء لهؤلاء الحكام. ولقد وجد أشخاص تخصصوا في هذا الفن فن اكتشاف المخطوطات وبيعها. فقد حصل جانوس لاسكاريس (١٤٥٠-١٥٣٥م) على عدد كبير من المخطوطات من الشرق وذلك لحساب ملك فرنسا لويس الثاني عشر أولاً، ومن ثم لحساب أسرة مديتشي الإيطالية. ولقد أتى كثير من هذه المخطوطات من أديرة بلاد اليونان في البر

اليوناني والجزر اليونانية.

ولعل أسرة مديتشي التي حكمت في ايطاليا إبان القرن الخامس عشر كانت أكثر الأسر تشجيعاً للفن والأدب والمكتبات. فقد تمركزت الحياة الأدبية والفنية في ايطاليا إبان تلك الفترة في البندقية وفلورانسا، وكان لفورانسا بخاصة ـ مركز حكم اسرة مديتشي ـ فضل كبير في نجاح حركة النهضة الحديثة. هذا على الرغم أن بقية حكام ايطاليا حذوا حذو آل مديتشي، ولكن كان لآل مديتشي فضل السبق. وقد استأجر كوزيمو دو مديتشي (١٣٨٩–١٤٦٤م) فاسباسيانو ليجمع له الكتب ويؤسس له مكتبة. فجمع فاسباسيانو النساخ ونسخ لكوزيمو هذا خلال ٢٢ شهراً حوالي ٢٠٠ مخطوطاً، كلها مزخرفة ومجلدة بأناقة. وقد حوت مكتبة كوزيمو التوراة وكتابات آباء الكنيسة وكتابات كتاب العصر الوسيط والمؤلفات الكلاسيكية في التاريخ والفلسفة والأدب والتمثيل. كذلك جمع له نقولو دو نيقولي مكتبة أخرى في فلورانسا بلغ عدد كتبها ٨٠٠ مجلد. وكان كوزيمو نفسه بحاثة ويتقن اللاتينية مع بعض المعرفة باليونانية والعبرية والعربية.

ولقد ظل القسم الأكبر من مجموعة كتب كوزيمو في مكتبة الأسرة، وقد زادت محتويات هذه المكتبة زيادة كبرى هائلة وذلك زمن حفيده لورانزو العظيم (١٤٤٩–١٤٩٢م). وقد اشتهر لورانزو أنه أمير متنور وحام للآداب والفنون ودخل في خدمته كثيرون من أجل انتاج الكتب وشرائها، وأرسل الوكلاء إلى جميع الأقطار لجمع المخطوطات والكتب، وجمع وأسس لنفسه مكتبة فخمة في الديانة والآداب الكلاسيكية. وكان يسمح للعلماء والباحثين أن يستعملوا مكتبته، كما كان أحد أوائل الأشخاص الذين أدخلوا الكتب المطبوعة إلى مكتباتهم بجانب المخطوطات. ولم تتفرق خزائن آل مديتشي بعد موت لورانزو وإنما حفظت أولاً في مكتبة سان مارك ثم نقلت إلى روما وأخيراً أعيدت إلى فلورنسا واستقرت في بناء خاص بني ليكون مكتبة باسم المكتبة اللورنزية، وهي المكتبة التي أنشأ بها ميشيل انجلو سنة ١٥٢٤م قاعة رائعة لم تزل قائمة حتى الآن. وفي سنة ١٨٠٨م ضمت هذه المكتبة إلى مكتبة مارسيانا في فلورنسا وأصبح اسم المكتبة الجديدة المكتبة المديتشية اللورانزية، وهي من الآثار الهامة والمعالم البارزة في فلورنسا.

كذلك ساهم في هذه الحركة بقية حكام ايطاليا وأسرها النبيلة كما فعل حاكم أوربينو في أواسط القرن الخامس عشر؛ الذي أسس مكتبة في قصره بلغ عدد كتبها عند موته سنة ١٤٨٢م أكثر من ٨٠٠ مجلد.



obeikandi.com

ولقد نشأت في أوروبا خلال القرن الخامس عشر حركة ضخمة تهدف للكشف عن المخطوطات المدفونة في الأديرة الأوروبية أو الموجودة في بلاد اليونان والقسطنطينية. فقد اكتشف في عدد من أديرة سويسرا والمانيا الجنوبية عدد من الكتب النادرة المجهولة.

وعلى الرغم من أن قسماً كبيراً من مكتبات القسم الأخير من العصور الوسطى قد أصبح مكتبات عامة فيما بعد، أو تفرق شذر مذر، إلا أن عدداً قليلاً من هذه المجموعات كان النواة الأولى لما أصبح فيما بعد المكتبة الأهلية أو الوطنية للبلد التي وجدت فيها. فقد أسس ملوك نابولي مكتبة شهيرة في عاصمتهم واستمرت في النمو والأهمية مدة قرنين من الزمن، ولكن لما احتل الفرنسيون نابولي سنة ١٤٨٥م نهبوا محتويات هذه المكتبة وأرسلوها غنيمة حرب إلى باريس ووضعوها في المكتبة الملكية هناك مع بقية مجموعات الكتب التي نهبوها من أوروبا.

ولقد كانت مكتبة ملوك فرنسا أكثر أهمية من مكتبة ملوك نابولي وأسعد حظاً. ذلك أن ملوك فرنسا من فيليب اغسطس حتى شارل الخامس اهتموا بالكتب والمكتبات، ونجد أسماءهم مقرونة بالمخطوطات الجميلة ذات الزخارف والنقوش والرسوم النادرة ومنها الكتب المقدسة والمزامير وكتب الصلوات وغيرها.

لذا يمكن القول إن المكتبة الأهلية الفرنسية في باريس بدأت مع شارل الخامس. ذلك أن هذا الملك وسع كل التوسعة مجموعة الكتب القليلة التي ورثها عن أبيه وأضاف إليها إضافات مهمة وجعل مكانها في قصر اللوفر وافتتحها رسمياً سنة ١٣٦٧م. ولقد نمت المكتبة نمواً مطرداً حتى وصل عدد كتبها إلى أكثر من ألف كتاب. وكانت غالبية الكتب ذات محتوى ديني ولكن وجد بها نسبة لا بأس بها من الكتب الباحثة في التاريخ والقانون والأدب الفرنسي. حتى أنه وجد فيها كتب منقولة عن العربية. وقد أصاب هذه المكتبة دمار جزئي أثناء الحروب بين الفرنسيين والإنكليز،، ولكنها لما لبثت أن ازيلت آثار الخراب والدمار واعيدت إلى مكانها. وأضيفت إليها اضافات مهمة؛ منها مكتبة دوق دوبيري المشهورة بمخطوطاتها الجميلة والنادرة، ومنها مكتبة أسرة أورليان في بلوا والمكتبات التي صودرت من ايطاليا.

هذا وعلى الرغم من أن ملوك انكلترا، منذ عهد الفرد الكبير فما بعد، أوجدوا مجموعات متفرقة هزيلة من الكتب، إلا أن جميع هذه المجموعات كانت هزيلة واعتبرت

obeikandi.com

ملكاً خاصاً، ولم تمتلك انكلترا مكتبة وطنية لنفسها إلا في القرن الثامن عشر عندما أسس المتحف البريطاني في لندن مكتبته الشهيرة.

وتعتبر المكتبة التي أسسها ملك المجر ماتياس كورفينوس (١٤٤٠-١٤٩٠م) من أشهر وأعظم مكتبات القرن الخامس عشر في أوروبا. فقد شغلت المكتبة جناحاً كاملاً في القصر الملكي في العاصمة بودا، وحشد فيها عدداً كبيراً من النساخ والمجلدين والمزخرفين لانتاج أبدع المخطوطات وأجملها، بعضها باللاتينية وبعضها باليونانية وبعضها بالعربية.

وقسمت المجموعة إلى قسمين متكافئين : القسم اللاتيني، والقسم اليوناني والشرقي، وهناك روايات متضاربة عن عدد كتبها، ولعل الرقم الحقيقي لا يتجاوز الخمسة آلاف مجلد. ولقد زالت هذه المكتبة من الوجود سنة ١٥٢٦م عندما احتل العثمانيون العاصمة بودا إذ انها دمرت أثناء القتال مع ما دمر من مباني وآثار.

ولقد ازدهرت في القرون الأخيرة من هذا العصر الطبقة الوسطى في أوروبا وأثرت وحاولت تقليد النبلاء ورجال الدين، وبدأت تتعلم وتتطلع لجمع الكتب وانشاء مكتبات خاصة بها، وذلك بالرغم من غلاء ثمن الكتب آنذاك. ولم تهتم هذه المكتبات بطبيعة الحال بالثقافة اللاتينية، كما هي الحال مع مكتبات الكنائس والأديرة والكليات. وإنما اهتمت أكثر بالكتب المؤلفة باللغات الوطنية، كما عرفت كتب الطب والقانون والنبات والأدب الشعري الوطني الذي كان في طور الظهور آنئذٍ. وقد صاحب نهوض الطبقة الوسطى تطور في مهنة التجليد واستقلالها من التبعية للأديرة. كذلك انتشرت تجارة المخطوطات في القرن الخامس عشر انتشاراً واسعاً في المدن الكبرى كباريس وبروغ وغنت وانفرس وكولونيا وستراسبورغ وفينا وغيرها، وصار النساخون يعرضون بضاعتهم في الأسواق المحلية والعامة.

وإذا انتقلنا الآن لدراسة تطور الكتاب نفسه ـ صناعته وكتابته وتزيينه وتصويره ..الخ ـ وجدنا هناك تطوراً ملحوظاً في هذا المضمار، وذلك نتيجة للعوامل التي حدثت في ذلك العصر وأثرت في تطور فن الكتاب وانتاجه بشكل عام.

فقد ظل الكتاب يعمل من الرق طوال ذلك العهد حتى بعد اختراع الطباعة بزمن طويل. ولا شك أن الورق لم يقابل بالترحاب في أوروبا ـ لسوء صنعه ولاقترانه بالمسلمين ـ وظل الرق متربعاً على عرشه ولم يبدأ القوم في التخلي عن ضرورة استعمال

الرق واستعمال الورق إلا بعد اختراع الطباعة بزمن طويل أواخر القرن الخامس عشر.

كذلك انعكست في كتابة الكتب وتزيينها وتجليدها المؤثرات الفنية التي سادت آنذاك. فمثلاً ما إن ظهر الطراز القوطي في فرنسا أواسط القرن الخامس عشر وانتشر بعد ذلك في أوروبا حتى ظهر أثره أيضاً في فن الكتاب.

وقد تطورت الكتابة نفسها وتحولت من الطراز الكارولنجي ذي الحروف الصغيرة والشكل المستدير إلى الطراز القوطي ذي الحروف الأكثر نحافة وتقارباً وزوايا حادة، وتقاربت الحروف إلى حد أنه إذا التقى حرفان منحنيان احدهما بجانب الآخر تحول الانحناءان إلى خط واحد. كما وإن الطراز القوطي ظهر في أسلوب الزخرفة المتبعة في المخطوطات، فقد طال هيكل الحرف الرأسي وذلك عن طريق رسم خطوط رفيعة حادة، ويظهر الطراز القوطي أيضاً في المنمنمات ذاتها، فقد صور الأشخاص وهم أنحف منهم في الحقيقة. وهناك خاصة تسمح بأن يؤرخ العصر الذي ترجع إليه الصورة الملونة، هي خاصة رسم المناظر الطبيعية في مؤخرة المناظر المرسومة.

وهذا لم يحدث إلا في القرن الثالث عشر. وأما في أواسط القرن الخامس عشر فهناك ظاهرة عامة؛ وهي أن الزخرفة الجانبية لا تنفصل عن الحروف الكبرى الرئيسية، إلا أنها أصبحت مستقلة واتخذت شكل أوراق الشجر والأزهار مرسومة بدقة مدهشة كما هي في الطبيعة.

كذلك خرج فن المنمنمات من داخل نطاق الأديرة وازداد ارتباطه بالحياة العلمانية شيئاً فشيئاً بحيث زاد عدد النساخين العلمانيين والرسامين العلمانيين خلال القرن الثالث عشر وما بعده لدى رجال البلاط والنبلاء. إذ لم يقتصر الحال على إنتاج كتب دينية، بل تعداه إلى الكتب العلمانية أيضاً، سواء أكانت تاريخاً أم روايات أم قصصاً تمثيلية. وقد اشتهر في القرن الرابع عشر بين المصورين العلمانيين جان بوسيل Jean Pucelle ، وأهم كتبه التي زخرفها «صلوات بلفيل» الموجود حالياً في المكتبة الأهلية في باريس. وهو كتاب رائع لما به من انسجام رائع وتوافق تام بين الكتابة والرسوم والإنتاج الجميل الذي يحويه بين صور الحيوانات والأزهار والرسوم الممثلة للطبيعة تمثيلاً واقعياً بحتاً، حتى صار للكتب التي خرجت من مرسم جان بوسيل أثر كبير على الفن الفرنسي لتلوين المخطوطات، حتى ان تلاميذه التحقوا بخدمة هذا الفن في القصر الملكي والبلاط الملكي.

كذلك ظهرت في القرن الرابع عشر نفسه مدرسة في تزيين المخطوطات يطلق عليها اسم المدرسة الفرنسية الفلمنكية، ذلك أن جمهرة من الفنانين الفلمنكيين (الأراضي الواطئة) وفدوا للاقامة في باريس في عصر جان بوسيل. وكان هؤلاء الفنانون قد اعتادوا زخرفة المخطوطات وتزيينها في بلادهم ببراعة وحماسة لا تقل عن حماسة الفنانين الفرنسيين. ولقد تأثر هؤلاء الفنانون بالفن الفرنسي وأثروا به تأثيراً قوياً متبادلاً ، ونشأ بهذه الصورة في عالم الفن مدرسة فرنسية ـ فلمنكية. وقد استخدم هؤلاء الفنانين جان دو بيري شقيق الملك وكلفهم بزخرفة أكثر من ثلاثمائة مخطوط زينوها بمناظر خلابة من حياة الشعب الفلمنكي. ونظراً لعدم اهتمامهم بالدقة التاريخية نجدهم قد أعطوا دائماً للأشخاص ولمناظر التوراة ملابس وزخارف خاصة ببلادهم الأصلية. وقد اشتهر عدد من هؤلاء الفنانين لعل أشهرهم بول دولامبور الذي عُدَّ صاحب الفضل الأول في إدخال عنصر المناظر الطبيعية في تلوين المخطوطات، حتى أنه اشترك مع أخويه في رسم كتاب «**ساعات الصلوات**» الشهير للدوق دو بيري وهو موجود حالياً في متحف كونديه في شانتي.

كذلك ظهر، في القرن نفسه، الفنان الفرنسي العظيم فوكيه في مدينة تور ويعد أعظم مصوري المخطوطات الفرنسيين. تأثر فوكيه بعدد من المؤثرات منها المدرسة الفرنسية الفلمنكية ومنها الفن الكلاسيكي ومنها المدرسة الفنية الإيطالية، إلا أنه كان ذا عبقرية خاصة جعلته يصهر كل تلك المؤثرات المختلفة في قالب فني جميل أصيل مبتكر جعلته مؤسس مدرسة فرنسية خاصة؛ حتى ضارع أعظم من سبقه من الفنانين في رقة ألوانه وصفاء رسومه، ولكنه فاقهم كثيراً في معانيه العميقة وطبيعة صوره.

لقد أصبحت الصورة لديه توضيحاً حقيقياً للنص المرفق بها ولم تعد مجرد عنصر زخرفي بحت. كذلك كان لمناظر الطبيعية سحر فرنسي حقيقي. وقد خدم فوكيه البلاط الفرنسي عهد شارل السابع ولويس الحادي عشر، وتعد صوره الواردة في كتاب «**ساعات الصوات**» المحفوظ الآن بمتحف كونديه من أروع ما رسم. أما تزيين المخطوطات في أوائل عهد النهضة فيعكس وجهة نظر النهضة ومثلها العليا في العودة إلى التراث اليوناني الروماني الكلاسيكي القديم. وتمتاز رسوم مخطوطات عصر النهضة بزخارفها المأخوذة من العصور القديمة مثل مناظر «آلهة الحب» والأعمدة والأصص والأحجار الكريمة وما إلى ذلك من الرسوم المستخدمة في زخرفة الاطارات والحروف الكبيرة initials. أما الكتابة

فكانت تقليداً للكتابة الكارولنجية ذات الحروف الصغيرة، ومن هذه الكتابة التي اتخذها الإنسانيون فيما بعد أتت الكتابة اللاتينية المستخدمة الآن؛ والتي حلت في كافة البلاد في أوروبا الغربية محل الكتابة القوطية ، باستثناء البلاد الناطقة بالألمانية.

ولعل أهم ما تم بالنسبة للكتب في أوائل عهد النهضة، التجليدات الفخمة المترفة التي خصصت لها مبالغ كبيرة لتجليد بعض المخطوطات الثمينة للملوك والأثرياء. وأغلب زخارف هذه التجليدات تتبع الطراز القوطي ولها زخارف مطبوعة على البارد.

أما الأدوات التي استعملت في طبع هذه الزخارف فكانت تمثل تنوعاً كبيراً من الأشكال الزخرفية المعروفة، مثل نقش الوردة القوطية وزهرة الزنبق والأسد والنسر والوعل.

أما الحليات الكبيرة التي كانت من النحاس الأصفر المحفور، وهي التي كانت تثبت في أركان التجليدات ووسطها، بالإضافة إلى الأقفال المثبتة في الكتب، فكلها تشهد بالمقدرة الرائعة لفنانيها. أما حواف الكتب فكانت تلون غالباً باللون الأخضر أو الأصفر، وندر تلوينها باللون الأحمر.

ويجب أن ننوه أن القرن الخامس عشر كان مواتياً لتطور المكتبات خلاله ورقيها، وأن هذا التقدم والرقي تم بجهود ومساعي الأفراد أكثر من جهود ومساعي المنظمات. وقد حدث حادثان في هذا القرن ساعدا في هذا التطور والازدهار : الأول حلول عصر النهضة في النصف الثاني من هذا القرن وقد شاهدنا جهود رجال أوائل عصر النهضة في هذا المضمار وكيف أن النهضة أكدت على النواحي الانسانية وجعلت شعارها العودة إلى التراث اليوناني الروماني والاعتراف من منابعه الأصلية، لا من الترجمات والشروح المتأخرة التي أعدتها الكنيسة. أما الحدث الثاني فهو اختراع الطباعة في أواسط هذا القرن وأثر ذلك في تطور الكتاب ونشر الكلمة المطبوعة. ولا حاجة للإفاضة هنا في الكلام على هذا الاختراع وأهميته لأن ذلك سيكون موضوع حديثنا في فصل تالٍ.

وقد وجدت في هذا العصر الأصول الأولى لعدد من مكتبات أوروبا الوطنية، ولعدد من مكتبات الجامعات الشهيرة فيها، وتأصلت عادة تخصيص بناء خاص للمكتبات المهمة، وكانت العادة جعل غرفة المكتبة طويلة ضيقة، والكتب موضوعة على الرفوف، وقسم كبير منها مسلسلاً.



obeikandi.com

كان أغلب مكتبات الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، سواء أكانت جامعية أم خاصة، مفتحة الأبواب للبحث الرصين، وكان هناك سجل للإعارة، وكان على المستعير أن يدفع رهناً مبلغاً من المال يساوي قيمة الكتاب المعار. وقد سجل بعض أصحاب الكتب على كتبهم اللعنات والشتائم وصبوها على من يسرقها أو يحاول سرقتها.

كذلك أصبح أمين المكتبة، ولا سيما في القرن الخامس عشر، من المناصب المهمة ولا يشغله إلا العلماء والباحثون وذلك طبعاً في المكتبات الجامعية الكبرى، وأصبحت عملية انتقاء الكتب وتزويد المكتبة بالكتب المناسبة من اختصاص أمين المكتبة. لم يعد أمين المكتبة في القرن الخامس عشر مجرد «حافظ للكتب» ولكنه أصبح شخصاً مثقفاً اعترف به العلماء المعاصرون له أنه شخص مثقف متخصص مثلهم.

ولعل الوظيفة الأهم التي قامت بها مكتبات القرن الخامس عشر هي وضع مجموعات الكتب في الاستعمال أكثر من حفظ الكتب نفسها. ولقد سمح للطلاب والأدباء والباحثون والكتاب وحتى للفنانين باستعمال مكتبات تجار وحكام وامراء إيطاليا في ذلك العصر. وقد ساعد هذا الجو على الاطلاع على المؤلفات الكلاسيكية وإعادة تقويمها وإعادة شرحها مما كان له أثر في الإسراع في حلول عصر النهضة وازدهاره.

وطبعاً لم تحصل النهضة كلياً بسبب جهود جامعي الكتب وأمناء المكتبات، ولكن هؤلاء وضعوا في متناول أيدي الباحثين والدارسين المصادر الأولية والأساسية التي استمد منها هؤلاء الباحثون التعاليم الجديدة. ولقد كان تعاون المكتبيين والدارسين وجامعي الكتب والطلاب أساسياً وحيوياً لعصر النهضة، وساعد في جعله من ألمع عصور التاريخ في أوروبا.

obeikandi.com